

عن المعاني، فكل من له أدنى مسكة من عقل، يعلم بطلان هذه الأوصاف فيها.

﴿الكلم الذكر وله الأنثى﴾ أي: أتعملون لله البنات بزعمكم، ولكن البنون؟

﴿تلك إذا قسمة ضيزى﴾ أي: ظلمة جائرة، [وأي ظلم أعظم من قسمة] تقتضي تفضيل العبد المخلوق على الخالق؟ [تعالى عن قولهم علواً كبيراً].

وقوله: ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ أي: من حجة وبرهان على صحة مذهبكم، وكل أمر ما أنزل الله به من سلطان، فهو باطل فاسد، لا يتخذ ديناً، وهم - في أنفسهم - ليسوا بمتبعين لبرهان، يتيقنون به ما ذهبوا إليه، وإنما دلهم على قولهم، الظن الفاسد، والجهل الكاسد، وما تبواه أنفسهم من الشرك والبدع الموافقة لأهويتهم، والحال أنه لا موجب لهم يقتضي اتباعهم الظن، من فقد العلم والهدى، ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ أي: الذي يرشدهم في باب التوحيد والنبوة، وجميع المطالب التي يحتاج إليها العباد، فكلها قد بينها الله أكمل بيان وأوضحه، وأدله على المقصود، وأقام عليه من الأدلة والبراهين، ما يوجب لهم وغيرهم اتباعه، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة من بعد البيان والبرهان، وإذا كان ما هم عليه، غايته اتباع الظن، ونهايته الشقاء الأبدي والعذاب السرمدى، فالبقاء على هذه الحال، من أسفه السفه، وأظلم الظلم، ومع ذلك يتعنون الأمانى، ويعترون بأنفسهم.

ولهذا أنكر تعالى على من زعم أنه يحصل له ما تمنى وهو كاذب في ذلك، فقال: ﴿أم للإنسان ما تمنى﴾ قلله الآخرة والأولى ﴿فيعطي منهما من يشاء، ويمنع من يشاء، فليس الأمر تابعاً لأمانيتهم، ولا موافقاً لأهوائهم.

﴿٢٦﴾ ﴿وكم من مملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ يقول تعالى منكراً على من عبد غيره من الملائكة وغيرهم، وزعم أنها تنفعه وتشفع له عند الله يوم القيامة: ﴿وكم من مملك في السماوات﴾ من الملائكة المقربين، وكرام الملائكة، ﴿لا تغني شفاعتهم شيئاً﴾ أي: لا تفيد من دعاها وتعلق بها ورجاها، ﴿إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ أي: لا بد من اجتماع الشرطين: إذنه تعالى في الشفاعة، ورضاه عن المشفوع له. ومن المعلوم المتقرر، أنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجه الله، موافقاً فيه صاحبه الشريعة، فالمشركون إذ لا نصيب لهم من شفاعة الشافعين، وقد سدوا على أنفسهم رحمة أرحم الراحمين.

﴿٢٧ - ٣٠﴾ ﴿إن السذبن لا يؤمنون بالآخرة ليسئون الملائكة تسمية الأنثى﴾ وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً * فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا * ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى * يعني ان المشركين بالله المكذبين لرسله، الذين لا يؤمنون بالآخرة، وبسبب عدم إيمانهم بالآخرة تجرؤوا على ما تجرؤوا عليه، من الأقوال، والأفعال المحادة لله ولرسوله، من قولهم: «الملائكة بنات الله»، فلم ينزهوا ربهم عن الولادة، ولم يكرموا الملائكة ويجلوهم عن تسميتهم إياهم إنثاءً، والحال أنه ليس لهم بذلك علم، لا عن الله، ولا عن رسوله، ولا دلت على ذلك الفطر والعقول، بل العلم كله دال على نقيض قولهم، وأن الله منزه عن الأولاد والصاحبة، لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وأن الملائكة كرام مقربون



إلى الله، قائمون بخدمته لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون * والمشركون ^(١) إنما يتبعون في ذلك القول القبيح، وهو ^(٢) الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، فإن الحق لا يد فيه من اليقين المستفاد من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة.

ولما كان هذا دأب هؤلاء المذكورين أنهم ^(٣) لا غرض لهم في اتباع الحق، وإنما غرضهم ومقصودهم، ما تبواه نفوسهم، أمر الله رسوله بالإعراض عن من تولى عن ذكره، الذي هو الذكر الحكيم، والقرآن العظيم، والنبأ الكريم، فأعرض عن العلوم النافعة، ولم يرد إلا الحياة الدنيا، فهذا منتهى إرادته، ومن المعلوم أن العبد لا يعمل إلا للشيء الذي يريد، فسعيهم مقصور على الدنيا ولذاتها وشهواتها، كيف حصلت حصلوها، وبأي طريق سنحت ابتدروها، ذلك مبلغهم من العلم * أي: هذا منتهى علمهم وغايته، وأما المؤمنون بالآخرة، المصدقون بها، أولو الألباب والعقول، فهمتهم وإرادتهم للدار الآخرة، وعلومهم أفضل العلوم وأجلها، وهو العلم المأخوذ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والله تعالى أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ممن لا يستحق

(٣) كذا في ب، وفي أ: أنه.

(٢) كذا في ب، وفي أ: إلا.

(١) كذا في ب، وفي أ: وهم.

من أعمال الشر بالعقوبة البليغة^(١).
﴿ويميزي الذين أحسنوا﴾ في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى خلق الله، بأنواع المنافع **﴿بالحسنى﴾** أي: بالحالة الحسنة في الدنيا والآخرة، وأكبر ذلك وأجله رضا ربهم، والفوز بنعيم الجنة^(٢).

ثم ذكر وصفهم فقال: **﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾** أي: يفعلون ما أمرهم الله به من الواجبات، التي يكون تركها من كبائر الذنوب، ويتركون المحرمات الكبار، كالزنا، وشرب الخمر، وأكل الربا، والقتل، ونحو ذلك من الذنوب العظيمة، **﴿إلا اللغم﴾** وهي الذنوب الصغار، التي لا يصر صاحبها عليها، أو التي يلم بها العبد، المرة بعد المرة، على وجه الندرة والقلة، فهذه ليس مجرد الإقدام عليها مخرجاً للعبد من أن يكون من المحسنين، فإن هذه مع الإتيان بالواجبات وترك المحرمات، تدخل تحت مغفرة الله التي وسعت كل شيء، ولهذا قال: **﴿إن ربك واسع المغفرة﴾** فلولا مغفرته لهلكت البلاد والعباد، ولولا عفوه وحلمه لسقطت السماء على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابة. ولهذا قال النبي ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن، ما اجتنبت الكبائر»، [وقوله]: **﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم﴾** أي: هو تعالى أعلم بأحوالكم كلها، وما جبلكم عليه، من الضعف والخور، عن كثير مما أمركم الله به، ومن كثرة الدواعي إلى بعض^(٣) المحرمات، وكثرة الجواذب إليها، وعدم الموانع القوية، والضعف

ذلك فيكمله إلى نفسه، ويغذله، فيضل عن سبيل الله، ولهذا قال تعالى: **﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى﴾** فيضع فضله حيث يعلم المحل اللائق به.

﴿٣١-٣٢﴾ **﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَاللَّهُ مَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى﴾** * الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللغم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى * يخبر تعالى أنه مالك الملك، المتفرد بملك الدنيا والآخرة، وأن جميع من في السماوات والأرض ملك لله، يتصرف فيهم تصرف الملك العظيم، في عبده ومماليكه، ينفذ فيهم قدره، ويمجري عليهم شرعه، ويأمرهم وينهاهم، ويميزهم على ما أمرهم به ونهاهم [عنه]، فيثيب المطيع، ويعاقب العاصي، ليجزي الذين أساءوا العمل السيئات من الكفر فما دونه بما عملوا



ذلك فيكمله إلى نفسه، ويغذله، فيضل عن سبيل الله، ولهذا قال تعالى: **﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى﴾** فيضع فضله حيث يعلم المحل اللائق به.

﴿٣١-٣٢﴾ **﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَاللَّهُ مَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى﴾** * الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللغم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى * يخبر تعالى أنه مالك الملك، المتفرد بملك الدنيا والآخرة، وأن جميع من في السماوات والأرض ملك لله، يتصرف فيهم تصرف الملك العظيم، في عبده ومماليكه، ينفذ فيهم قدره، ويمجري عليهم شرعه، ويأمرهم وينهاهم، ويميزهم على ما أمرهم به ونهاهم [عنه]، فيثيب المطيع، ويعاقب العاصي، ليجزي الذين أساءوا العمل السيئات من الكفر فما دونه بما عملوا

- (١) في ب: القطيعة.
- (٢) في ب: والفوز بالجنة وما فيها من النعيم.
- (٣) في ب: إلى فعل.
- (٤) في ب: حين أخرجكم.
- (٥) في ب: وأجود الأجودين.
- (٦) كذا في ب، وفي أ: تطهرونها، وتخبرون الناس بذلك على وجه التمدح.

«وأنه خلق الزوجين» فسر الزوجين^(٤) بقوله: «الذكر والأنثى» وهذا اسم جنس شامل لجميع الحيوانات، ناطقها وبهيمها، فهو المنفرد بخلقها، «من نطفة إذا غشي» وهذا من أعظم الأدلة على كمال قدرته وانفراده بالعزة العظيمة، حيث أوجد تلك الحيوانات، صغيرها كبيرها من نطفة ضعيفة^(٥) من ماء مهين، ثم نماها وكمّلها، حتى بلغت ما بلغت، ثم صار الآدمي منها إما إلى أرفع المقامات في أعلى عِلين، وإما إلى أدنى الحالات في أسفل سافلين، ولهذا استدل بالبداة على الإعادة، فقال: «وأن عليه النشأة الأخرى» فيعيد العباد من الأجدات، ويمجمهم ليوم الميقات، ويمجازهم على الحسنات والسيئات، «وأنه هو أغشى وأغشى» أي: أغشى العباد بتيسير أمر معاشهم من التجارات وأنواع المكاسب، من الحرف وغيرها، وأغشى أي: أفاد عباده من الأموال بجميع أنواعها، ما يصيرون به مقتنين لها، ومالكين لكثير من الأعيان، وهذا من نعمه على عباده أن جميع النعم منه تعالى^(٦)، وهذا يوجب للعباد أن يشكروه، ويعبدوه وحده لا شريك له، «وأنه هو رب الشعري» وهي النجم المعروف بالشعري العجور، المسماة بالمرزم، وخصها الله بالذكر، وإن كان رب كل شيء، لأن هذا النجم مما عُد في الجاهلية، فأخبر تعالى أن جنس ما يعبد المشركون مريبوب مدبر مخلوق، فكيف تتخذ إلهاً مع الله^(٧)، «وأنه أهلك عاداً الأولى» وهم قوم هود عليه السلام، حين كذبوا

وإحسانه الخليفة كلها، وتحمّد الله عليه، حتى إن أهل النار ليدخلون النار، وإن قلوبهم مملوءة من حمد ربهم، والإقرار له بكمال الحكمة ومقت أنفسهم، وأنهم الذين أوصلوا أنفسهم وأوردوها شر الموارد، وقد استدل بقوله تعالى: «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى» من يرى أن القُرْب لا يفيد^(٨) إهداؤها للأحياء ولا للأموات قالوا لأن الله قال: «وأن ليس للإنسان ما سعى» فوصول سعي غيره إليه منافع لذلك، وفي هذا الاستدلال نظر، فإن الآية إنما تدل على أنه ليس للإنسان إلا ما سعى بنفسه، وهذا حق لا خلاف فيه، وليس فيها ما يدل على أنه لا ينتفع بسعي غيره، إذا أهداه ذلك الغير له، كما أنه ليس للإنسان من المال إلا ما هو في ملكه وتحت يده، ولا يلزم من ذلك، أن لا يملك ما وهبه له الغير من ماله الذي يملكه.

وقوله: «وأن إلى ربك المنتهي» أي: إليه تنتهي الأمور، وإليه تصير الأشياء والخلائق بالبعث والنشور، وإلى الله المنتهي في كل حال، فإنّ الله ينتهي العلم والحكم، والرحمة وسائر الكمالات، «وأنه هو أضحك وأبكى» أي: هو الذي أوجد أسباب الضحك والبكاء، وهو الخير والشر، والفرح والسرور والنهم [والحزن]، وهو سبحانه له الحكمة البالغة في ذلك، «وأنه هو أمات وأحيا» أي: هو المنفرد بالإيجاد والإعدام، والذي أوجد الخلق وأمرهم ونهاهم، سيعيدهم بعد موتهم، ويمجازهم بتلك الأعمال التي عملوها في دار الدنيا،

عليه النشأة الأخرى» إلى آخر السورة يقول تعالى: «أفرأيت» قبح حالة من أمر بعبادة ربه وتوحيده، فتولى عن ذلك وأعرض عنه؟

فإن سمحت نفسه ببعض الشيء، القليل، فإنه لا يستمر عليه، بل يبخل ويكدي ويمتنع.

فإن المعروف ليس سجية له وطبيعة^(٩)، بل طبعه التوحي عن الطاعة، وعدم الثبوت على فعل المعروف، ومع هذا، فهو يزكي نفسه، وينزلها غير منزلتها التي أنزلها الله بها.

«أعنده علم الغيب فهو يرى» الغيب ويخبر به، أم هو متقول على الله، متجري على الجمع بين الإساءة والتزكية^(١٠)، كما هو الواقع، لأنه قد علم أنه ليس عنده علم من الغيب، وأنه لو قدر أنه ادعى ذلك فالإخبارات القاطعة عن علم الغيب التي على يد النبي المعصوم، تدل على نقيض قوله، وذلك دليل على بطلانه.

«أم لم ينبا» هذا المدعي «بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى» أي: قام بجميع ما ابتلاه الله به، وأمره به من الشرائع وأصول الدين وفروعه، وفي تلك الصحف أحكام كثيرة من أهمها ما ذكره الله بقوله: «ألا تزر وازرة وزر أخرى» * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى» أي: كل عامل له عمله الحسن والسيئ، فليس له من عمل غيره وسعيهم شيء، ولا يتحمل أحد عن أحد ذنباً، «وأن سعيه سوف يرى» في الآخرة فيميز حسنه من سيئه، «ثم يجزاه الجزاء الأوفى» أي: المستكمل لجميع العمل الحسن الخالص بالحسنى، والسيئ الخالص بالسوءى، والمشوب بحسبه، جزاء تقرّ بعدله

(١) في ب: فإن الإحسان ليس سجية له وطبعاً.

(٢) فتجريء عليه جامع بين المحذرين الإساءة والتزكية.

(٣) في ب: لا يجوز.

(٤) في ب: فسرهما.

(٥) كذا في ب، وفي أ: قليلة.

(٦) في ب: وهذا من نعمه تعالى أن أخبرهم أن جميع النعم منه.

(٧) في ب: فكيف تتخذ مع الله آلهة.

غافلون عنه، لاهون عن تدبره، وهذا من قلة عقولكم وأديانكم، فلو عبدتم الله وطلبتم رضاه في جميع الأحوال لما كنتم بهذه المثابة التي يأنف منها أولو الألباب، ولهذا قال تعالى: ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾ الأمر بالسجود لله خصوصاً، ليدل ذلك على فضله^(٦)، وأنه سر العبادة ولبها، فإن لبها الخشوع لله^(٧) والخضوع له، والسجود هو أعظم حالة يخضع بها العبد^(٨)، فإنه يخضع قلبه وبدنه، ويجعل أشرف أعضائه على الأرض الهيئة موضع وطء الأقدام.

ثم أمر بالعبادة عموماً، الشاملة لجميع ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

تم تفسير سورة النجم، والحمد لله الذي لا تحصى ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يشني عليه عباده، وصلى الله على محمد وسلم تسليماً كثيراً.

تفسير سورة اقتربت مكية

﴿١ - ٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم اقتربت الساعة وانشق القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر * ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغني النذر﴾ يخبر تعالى أن الساعة وهي القيامة اقتربت وأن أوانها، وحين وقت مجيئها، ومع ذلك، فهؤلاء المكذبون لم يزالوا مكذبين بها، غير مستعدين لنزولها، ويريمهم الله من الآيات العظيمة الدالة على وقوعها ما يؤمن على

ألم يأت بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد؟ ألم يهلك الله من كذب من قبله من الرسل الكرام؟ فما الذي يمنع العذاب عن المكذبين لمحمد سيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين؟

﴿أزفت الأزفة﴾ أي: قرئت القيامة، ودنا وقتها، وبانت علاماتها، ﴿ليس لها من دون الله كاشفة﴾ أي: إذا أتت القيامة وجاءهم العذاب الموعود به.

ثم توعد المنكرين لرسالة الرسول محمد ﷺ، المكذبين لما جاء به من القرآن الكريم، فقال: ﴿أفمن هذا الحديث تعجبون﴾؟ أي: أفمن هذا الحديث الذي هو خير الكلام وأفضله وأشرفه تتعجبون منه، وتجعلونه من الأمور المخالفة للعادة الخارقة للأمور [والحقائق] المعروفة؟ هذا من جهلهم وضلالهم وعنادهم، وإلا فهو الحديث الذي إذا حدث صدق، وإذا قال قولاً فهو القول الفصل الذي ليس بالهزل، وهو القرآن^(٩) العظيم، الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، الذي يزيد ذوري الأحلام رأياً وعقلاً، وتسدداً وثباتاً، وإيماناً و يقيناً والذي^(١٠) ينبغي العجب من عقل من تعجب منه، وسفهه وضلاله.

﴿وتضحكون ولا تبكون﴾ أي: تستعملون الضحك والاستهزاء به، مع أن الذي ينبغي أن تتأثر منه النفوس، وتلين له القلوب، وتبكي له العيون، سماعاً لأمره ونبيه، وإصغاء لوعده ووعيده، والتفاتاً لأخباره الحسنة الصادقة، ﴿وأنتم سامدون﴾ أي:

هوداً، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية، ﴿وثمود﴾ قوم صالح عليه السلام، أرسله الله إلى ثمود فكذبوه، فبعث الله إليهم^(١١) الناقة آية، فعقروها وكذبوه، فأهلكهم الله تعالى، ﴿فما أبقى﴾ منهم أحداً، بل أهلكهم الله عن آخرهم^(١٢)، ﴿وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أقلمم وأطغى﴾ من هؤلاء الأمم، فأهلكهم الله وأغرقهم في اليم، ﴿والمؤتفة﴾ وهم قوم لوط عليه السلام ﴿أهوى﴾ أي: أصابهم الله بعذاب ما عذب به أحداً من العالمين، قلب أسفل ديارهم أعلاها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل، ولهذا قال: ﴿فغشاها ما غشى﴾ أي: غشيها من العذاب الأليم الوخيم ما غشى أي: شيء عظيم لا يمكن وصفه، ﴿فبأي آلاء ربك تتمارى﴾ أي: فبأي: نعم الله وفضله تشك أيها الإنسان؟ فإن نعم الله ظاهرة لا تقبل الشك بوجه من الوجوه، فما بالعباد من نعمة إلا منه تعالى، ولا يدفع النقم إلا هو.

﴿هذا نذير من النذر الأولى﴾ أي: هذا الرسول القرشي الهاشمي محمد بن عبد الله، ليس بسدع من الرسل، بل قد تقدمه من الرسل السابقين، ودعوا إلى ما دعا إليه، فلاي: شيء تنكر رسالته؟ وبأي: حجة تبطل دعوته؟

أليست أخلاقه [أعلا] أخلاق الرسل الكرام، أليست دعوته إلى كل خير والنهي عن كل شر؟^(١٣)

(١) في ب: لهم.

(٢) في ب: بل أبادهم عن آخرهم.

(٣) في ب: أليس يدعو إلى كل خير، وينهي عن كل شر.

(٤) في ب: القرآن.

(٥) في ب: بل الذي.

(٦) في ب: يدل على فضله.

(٧) في ب: فإن روحها الخشوع لله.

(٨) في أ: القلب، وفي ب: الكلمة غير واضحة، وقد جعلتها العبد لمناسبة الكلمة للمسياق لقوله فيما بعد: (قلبه وبدنه).



يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ﴿ فإنه لو كان قصدهم اتباع الهدى، لأمسوا قطعاً، واتبعوا عمداً ﴾، لأنه أراهم الله على يديه ^(٥) من البيئات والبراهين والحجج القواطع، ما دل على جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، وكل أمر مستقر ﴿ أي: إلى الآن، لم يبلغ آخره، فالصدق يتقلب في جنات النعيم، ومغفرة الله ورضوانه، والمكذب يتقلب في سخط الله وعذابه، خالداً مخلداً أبداً.

مثله البشر، فمن أعظم الآيات الدالة على صحة ما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ، أنه لما طلب منه المكذوبون أن يريهم من خوارق العادات ما يدل على [صحة ما جاء به] صدقه، أشار ﷺ إلى القمر بإذن الله تعالى، فانشق فلقين، فلقه على جبل أبي قبيس، وفلقه على جبل قيعقان، والمشركون وغيرهم يشاهدون هذه الآية الكبرى ^(٦) الكائنة في العالم العلوي، التي لا يقدر الخلق على التمويه بها والتخييل، فشاهدوا أمراً ما رأوا مثله، بل ولم يسمعوا أنه جرى لأحد من المرسلين قبله نظيره، فانبهروا لذلك، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولم يرد الله بهم خيراً، ففزعوا إلى بهتهم وطغيانهم، وقالوا: سحرنا محمد، ولكن علامة ذلك أنكم تسألون من قدم ^(٧) إليكم من السفر، فإنه وإن قدر على سحركم، لا ^(٨) يقدر أن يسحر من ليس مشاهداً مثلكم، فسألوا كل من قدم، فأخبرهم بوقوع ذلك، فقالوا: ﴿سحر مستمر﴾ سحرنا محمد وسحر غيرنا، وهذا من البهت الذي لا يروج إلا على أسفه الخلق وأصلهم عن الهدى والعقل، وهذا ليس إنكاراً منهم لهذه الآية وحدها، بل كل آية تأتيهم، فإنهم مستعدون لمقابلتها بالباطل ^(٩) والرد لها، ولهذا قال: ﴿وإن يروا آية يعرضوا﴾ ولم يعد الضمير على انشقاق القمر فلم يقل: ﴿وإن يروا آية يعرضوا﴾ وليس قصدهم اتباع الحق والهدى، وإنما قصدهم اتباع الهوى، ولهذا قال: ﴿وكذبوا واتبعوا أهواءهم﴾ كقوله تعالى: ﴿فإن لم

وقال تعالى - مبيناً أنهم ليس لهم قصد صحيح، ولا اتباع للهدى - ﴿ولقد جاءهم من الأنبياء﴾ أي: الأخبار السابقة واللاحقة والمعجزات الظاهرة ﴿ما فيه مردجور﴾ أي: زاجر يزجرهم عن غيهم وضلالهم، وذلك ﴿حكمة﴾ منه تعالى ﴿بالغة﴾ أي: لتقوم حجته على المخالفين ^(١٠)، ولا يبقى لأحد على الله حجة بعد الرسل، ﴿فما تغيثنذر﴾ كقوله تعالى: ﴿ولو جاءتهم كل آية لا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾.

وقال تعالى - مبيناً أنهم ليس لهم قصد صحيح، ولا اتباع للهدى - ﴿ولقد جاءهم من الأنبياء﴾ أي: الأخبار السابقة واللاحقة والمعجزات الظاهرة ﴿ما فيه مردجور﴾ أي: زاجر يزجرهم عن غيهم وضلالهم، وذلك ﴿حكمة﴾ منه تعالى ﴿بالغة﴾ أي: لتقوم حجته على المخالفين ^(١٠)، ولا يبقى لأحد على الله حجة بعد الرسل، ﴿فما تغيثنذر﴾ كقوله تعالى: ﴿ولو جاءتهم كل آية لا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾.

﴿يدعو الداع﴾ إسرافيل عليه السلام ﴿إلى شيء نكر﴾ أي: إلى أمر فظيع تنكره الخليقة، فلم تر منظرًا أفظع ولا أروع منه، فينفخ إسرافيل نفخة، يخرج بها الأموات من قبورهم لموقف القيامة، ﴿خشعاً أبصارهم﴾ أي: من الهول والفرع الذي وصل إلى قلوبهم، فخضعت وذلت، وخشعت لذلك أبصارهم.

﴿يخرجون من الأجداث﴾ وهي القبور، ﴿كأنهم﴾ من كثرتهم، وروجان بعضهم ببعض ﴿جراد منتشر﴾ أي: مبعوث في الأرض، متكاثر جداً، ﴿مهطعين إلى الداع﴾ أي: مسرعين لإجابة النداء الداعي ^(١١)، وهذا يدل على أن الداعي يدعوهم ويأمرهم بالحضور لموقف القيامة، فيلبون دعوته، ويسرعون إلى إجابته، ﴿يقول الكافرون﴾ الذين قد حضر عذابهم: ﴿هذا يوم عسر﴾ كما قال تعالى ﴿على الكافرين غير يسير﴾

﴿٦ - ٨﴾ ﴿فتول عنهم يوم يدعو الداع إلى شيء نكر * خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر * مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾ يقول تعالى لرسوله ﷺ: قذبان أن المكذبين لا حيلة في هداهم، فلم يبق إلا الإعراض عنهم والتولي عنهم، [فقال: ﴿فتول عنهم﴾ وانتظر بهم يوماً عظيماً وهولاً جسيماً، وذلك حين

﴿٦ - ٨﴾ ﴿فتول عنهم يوم يدعو الداع إلى شيء نكر * خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر * مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾ يقول تعالى لرسوله ﷺ: قذبان أن المكذبين لا حيلة في هداهم، فلم يبق إلا الإعراض عنهم والتولي عنهم، [فقال: ﴿فتول عنهم﴾ وانتظر بهم يوماً عظيماً وهولاً جسيماً، وذلك حين

(١) في ب: العظيمة.

(٢) في ب: من ورد.

(٣) في ب: لم.

(٤) في ب: بالتكذيب.

(٥) كذا في السخيتين والمراد ظاهر وهو أن الله أراهم على يديه.

(٦) في ب: العالمين.

(٧) كذا في ب، وفي أ: مسرعين لنداء الداعي.

ونهاراً، وسراً وجهاراً، فلم يزداهم ذلك إلا عناداً وطغياناً، وقدحاً في نبيهم، ولهذا قال هنا: ﴿فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون﴾ لزعمهم أن ما هم عليه وآباؤهم من الشرك والضلال هو الذي يدل عليه العقل، وأن ما جاء به نوح عليه الصلاة والسلام جهل وضلال، لا يصدر إلا من المجانين، وكذبوا في ذلك، وقلبوا الحقائق الثابتة شرعاً وعقلاً، فإن ما جاء به هو الحق الثابت، الذي يرشد العقول النيرة المستقيمة، إلى الهدى والنور والرشد، وما هم عليه جهل وضلال مبين، [وقوله]: ﴿وازدجر﴾ أي: زجره قومه وعنفوه عندما دعاهم إلى الله تعالى، فلم يكفهم - قبحهم الله - عدم الإيمان به، ولا تكذيبهم إياه، حتى أوصلوا إليه من أذيتهم ما قدروا عليه، وهكذا جميع أعداء الرسل، هذه حالهم مع أنبيائهم، فعند ذلك دعا نوح ربه [فقال]: ﴿أي مغلوب﴾ لا قدرة لي على الانتصار منهم، لأنه لم يؤمن من قومه إلا القليل النادر، ولا قدرة لهم على مقاومة قومهم، ﴿فانتصر﴾ اللهم لي منهم، وقال في الآية الأخرى: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ الآيات، فأجاب الله سؤاله، وانتصر له من قومه، قال تعالى: ﴿فتفتحنا أبواب السماء بماء منهمر﴾ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمرٍ قد قدر * وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر * ولقد تركناها آية فهل من مدكر * فكيف كان عذابي ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر * لما ذكر تبارك وتعالى حال المكذبين لرسوله، وأن الآيات لا تنفع فيهم، ولا تحدي عليهم شيئاً، أنذرهم وخوفهم بعقوبات الأمم الماضية المكذبة للرسول، وكيف أهلكتهم الله وأحل بهم عقابه.

فذكر قوم نوح، أول رسول بعثه الله إلى قوم يعبدون الأصنام، فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فامتنعوا من ترك الشرك وقالوا: ﴿لا تذرنا ألهتكم ولا تذرنا ودّاً ولا سواعاً * ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾. ولم يزل نوح يدعوهم إلى الله ليلاً

وحتى نزل نوح يدعوهم إلى الله ليلاً

وإنه تلقى الرضوان الذكر الأضيء ﴿من خلقه إنا نحق﴾ وأن عبدنا الشاة الحرم ﴿وأنه مر أغرق وأقرب﴾ وأنهم هربوا الشرى ﴿وأنه أمك عات الأهل﴾ ونحوها آياتي ﴿وقوم نوح من قبل إناهم كانوا ظالمين﴾ واللوحيمة أوتيت ﴿فكفها ما عسى﴾ أي: أي الأذى تشاكف ﴿هذا يورث من الأهل﴾ أي: الأرومة ﴿ليس لهم من دون الأرومة شفة﴾ أي: هذا أوتيت ﴿فكفها ما عسى﴾ أي: أي الأرومة تشاكف ﴿فكفها ما عسى﴾ أي: أي الأرومة تشاكف ﴿فكفها ما عسى﴾ أي: أي الأرومة تشاكف

﴿فالتقى الماء﴾ أي: ماء السماء والأرض ﴿على أمر﴾ من الله له بذلك، ﴿قد قدر﴾ أي: قد كتبه الله في الأزل وقضاه، عقوبة لهؤلاء الظالمين الطاغين، ﴿وحملناه على ذات



[مفهوم ذلك أنه يسير سهل على المؤمنين] (١)

﴿١٧-٩﴾ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر * فدعاه ربه أي مغلوب فانتصر * ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمرٍ قد قدر * وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر * ولقد تركناها آية فهل من مدكر * فكيف كان عذابي ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر * لما ذكر تبارك وتعالى حال المكذبين لرسوله، وأن الآيات لا تنفع فيهم، ولا تحدي عليهم شيئاً، أنذرهم وخوفهم بعقوبات الأمم الماضية المكذبة للرسول، وكيف أهلكتهم الله وأحل بهم عقابه.

فذكر قوم نوح، أول رسول بعثه الله إلى قوم يعبدون الأصنام، فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فامتنعوا من ترك الشرك وقالوا: ﴿لا تذرنا ألهتكم ولا تذرنا ودّاً ولا سواعاً * ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾. ولم يزل نوح يدعوهم إلى الله ليلاً

وحتى نزل نوح يدعوهم إلى الله ليلاً

(٣) في ب: ولا صده عن ذلك صاد.

(٤) في ب: لرسوله.

(٥) في ب: فهل من متذكر.

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: وشدت أسرها.